«إيريك هوبسباوم» و«تيرنس رينجر» (محرران) : اختراع التراث دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع

ترجمة "شيرين أبو النجا وآخرين" ، مراجعة وتقديم : "عاصم الدسوقى"
نشر مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ، جامعة القاهرة ،
القاهرة ٢٠٠٤ (٤١٦ صفحة)

هذا كتاب تولى الإشراف على تحريره مؤرخ بارز ، ومتخصص فى التراث ، نشر بالإنجليزية عام ١٩٩٣ ، وترجم إلى العربية ونشر عام ٢٠٠٤ .

والكتاب يعرض فى فصوله السبعة لإشكالية أبعاد التراث الثلاثة : الموروث ، والمنقول ، والمخترع ، ومدى إمكانية اعتبار التراث من المقدسات ، وأى تلك الأبعاد تضفى عليه هذه الصفة . وتتناول دراسات الكتاب : أوروبا وأفريقيا والهند ، ليقول لنا : إن ما نظنه موروثًا ثقافيًا وتقاليد واجبة الاحترام ما هى إلا اختراع من صنع القوة المسيطرة التى تفرض نموذجها فى الحياة على الآخرين ليكونوا نسخة مشابهة ، ولكن تحت هيمنة القوة المسيطرة .

وكشفت لنا تلك الدراسات كيف أن القوة المسيطرة فى أى بلد أوروبى صنعت تراثًا من عندها ، وهيأت له أسباب السيادة ، وكيف قامت تلك البلاد بنقل تراثها المصطنع معها إلى مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا والأمريكتين ، وأوجدت هناك عناصر أو نخب تثاقفت معها ، وجدت تلك العناصر – فى محاكاة القيم الوافدة – مصلحة لها على حساب تراثها الوطنى ربما بدافع الإحساس بالنقص أمام قوة القهر الاستعمارى ، مما يترتب عليه صراع فى تلك البلاد بين الثقافة الوطنية وثقافة المستعمر الوافدة .

وينتهى الكتاب بالدعوة إلى إعادة النظر فى كل مقولات الثقافة والتقاليد فى بلاد أخرى ، غير البلاد التى وردت فيها فى الدراسات التى شملها الكتاب ، وخاصة أن الكتابات فى هذا المجال نادرة فى الأدبيات السوسيولوجية والإنثروبولوجية ، مع غياب هذا الجانب فى الموسوعات .

وعلى الرغم ما قد يبدو من « تأصيل » لفكرة « اختراع » التراث فى هذا الكتاب ، وعدم تناوله لبلاد عربية أو إسلامية ، إلا أنه يوجه رسالة – على درجة كبيرة من الخطورة – تتوافق مع « عصر العولمة » الذى يدعو إلى تغليب الثقافة التى ثبتت قوتها وتفوقها فى عصر الحضارة الرقمية ، ويقصد بها الحضارة الغربية ، ويقدم أطروحة (علمية) لمواجهة الدعوات إلى مقاومة العدوان على الثقافات الوطنية ، ومحاولة مسخها وإهدار هوية الشعوب . فإذا كان التراث مبتدعًا مصطنعًا ، تكون من خلال عملية تاريخية معقدة ، فما جدوى الحرص على بقائه والتمسك به ؟

ومن هنا ، تأتى أهمية ترجمة هذا الكتاب ، وإتاحته فى المكتبة العربية ، حتى نقف على الأطروحات الفكرية التى تخدم التوسع الغربى الجديد فى عصر العولمة .

د . ع